

الصيام

١٣١٥

مصر في يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٣١٧ - ٦ يناير (كانون ٢) سنة ١٩٠٠

الصيام والتمدن

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون

أكتب هذه المقالة لطائفتين من المسلمين - طائفة تصوم ذاهلة عن معنى الصوم محرومة من فوائده ومزاياه فصومها أقرب الى العادة منه الى العبادة وطائفة أفرطت في الترف والتنعيم واسترسلت في الشهوات استرسالا فشق عليها الصوم فتركته غير مبالية بالامر الالهي ولا ملتفتة الى ما في هذه العبادة من المنافع الروحية والجسدية. هذه الطائفة هي التي نشأت في مهد التمدن المصري الشرقي وأعني بهذا التمدن ماضم ذروه الى مفاصد التربية الشرقية كثيرا من مفاصد التربية الغربية فنسوا حظا مما ذكروا به على لسان الشرع ولم يستبدلوا بما تركوه من أعمال الدين وآدابه وفضائله ما يقوم مقامه في قوام السعادة الدنيوية مما أفادهم العلم والاختيار فضلا عن السعادة الاخرية فإنه ليس لها في التربية الغربية - على ما نعتقد - نصيب . ولا نشرك مع هؤلاء من يترك الصوم من الغوغاء والتجوت فانهم لا يقرأون واذا قرأوا أو قرئ عليهم لا يفهمون . واذا فهموا لا يبالون أنهم مخطئون أو فاسقون لانهم مستهترون

ومستولفون (لا يبالون ذمًا ولا عارًا) أولئك حزب الشيطان إلا ان حزب
الشيطان هم الخاسرون

أيها المتمدن الشرقي أقسم عليك بشرفك الذي تقسم به وترعاه وهو
عوني عليك من تمدنك دون سواه ولولاه لكنت مستولفا لا تبالي بالعار
ولا ينجع فيك الانذار ان تقرأ مقالتى هذه وتتدبرها حق التدبر لعلها
تذكرك بامر هو مركز في فطرتك الزكية ولكن أذهلتك عنه النشأة
المصرية وهو ان الصوم ركن من أركان (الشرف) الذي تحرص على الاتصاف
به لا يثبت لك الشرف الصحيح ان كنت موقنا بالدين الذي تنتسب اليه
بدونه ولا يتم لك الشرف العرفي ان كنت غير مؤمن الا به أو بمثله
أكشف حجاب حال بينك وبين الشعور بفقد الشرف بفقد الصوم ونحوه
هو وجود كثير ممن على شاكلتك من خلطائك وخلصائك الذين تمش
معهم وهم من أهل المال والسلطة مع ملاحظة ان الشرف هو ما يعده جمهور
الناس شرفاً ويحترمون صاحبه ويجلونه ولو في الظاهر دون الباطن وهذا
هو معنى الشرف عند عامة الناس ودهائمهم في جميع الأمم وهو يقتضي ان
يكون الشرف أمراً اعتبارياً لا حقيقة له في نفسه فقد يعتبر قوم شيئاً من
الاشياء شرفاً يتباهون به ويتنافسون فيه وهو عند غيرهم ضعة وخسة يتقذّر
منه ويتباعد عنه وما من طائفة من الطوائف تقيم على عمل من الاعمال الا
وهو في عرفها شرف وله أسماء ونعوت يتمدح بها فاصحاب السلب والنهب
يرون ان عملهم من آثار الشجاعة والشهامة وانه أفضل أنواع الكسب
وأشرفها وعلى هذا فقس وأما الحكماء المحققون والعلماء الراسخون من جميع
الأمم فانهم يرون ان الشرف أمر حقيق وانه هو الكمال الانساني ويمكنني

ان أعرفه بكل عمل يجلب صاحبه ظاهرا وباطنا ويحترم بحق من العقلاء والفضلاء فمن دونهم وهؤلاء لا يجلبون أحدا ويحترمونه على عمل الا اذا كان له أثر في نفع أمة وحفظ مصالحها والذود عن حقوقها . فقيام الانسان بالواجب عليه لتهديب نفسه ومصالحها لا يسمى بنفسه شرفا وانما هو من الوسائل المعدة والمهيأة له لنوال الشرف والصيام من جملة هذه الوسائل ولذلك قال تعالى في بيان حكمة ايجابه علينا (لعلكم تتقون) فان معنى لعل في القرآن الاعداد والهيئة لما تدخل عليه على ما اختاره استاذنا مفتي الديار المصرية لهذا العهد . واليك بيان هذاني شأن الصيام

لاخلاف بين علماء الاجتماع في ان سعادة الامة منوطة بحسن تربية أفرادها فالسباقات الى السعادة في هذه الحياة الدنيا من الامم هن السباقات في العناية بالتربية كانكلترا والولايات المتحدة وفرنسا والمانيا . رأيت هذه الامم العزيزة ان الامة الانكليزية قد سبقتهن جمعا في ميدان السيادة والسعادة حتى انها استولت على قريب من ثلث العالم الانساني (٤٠٠ مليون) وأخذت أهم مغالقات البحار وقبضت على أكثر الاعصاب المعنوية للعالم المتمدن وهي الاسلاك البرقية وامتلكت معظم ينابيع الثروة وانها نالت هذا بسلاح الحكمة والتدبير لا بسلاح الابداء والتدمير لانها اقلهن حربا وأبعدهن عن الاستعداد له بالنسبة لما استعمرتة من الارض - رأيت هذا فحار الاكثرون في تعليقه غفلة منهم عن الاستدلال بالأثر على المؤثر وبالمعلول على العلة واهتدى اليه بعض المحققين في علم الاجتماع وطبائع الامم فقالوا ان هذا سبق معلول لحسن التربية ثم بحثوا في طرق التربية الانكليزية وقارنوها بالطرق المعروفة عند سائر الامم المتقدمة فظهر لهم صحة استدلالهم وفصل

المجمل تفصيلا . وفي هذه التربية ألف الموسيوأدمون ديمولان كتابه «سر تقدم الانكايير الكسونيين» ، ومنه علم ان مدار هذه التربية على ان يكون المرتبى مستقلا بنفسه في أمر معيشته قادرا على ان يعيش في كل أرض ويزاحم في شؤون الحياة كل شعب ويقاوي من فواعل الطبيعة كل عارض ويصابر من حوادث الزمان كل طارئ ليتمكن من بسط جناح سلطنة أمته على كل أمة ومن اعلاء مجد قومه على جميع الاقوام . هذه هي التربية المثلى التي سبق الشعب السكسوني بها سائر الشعوب ولاشك انها لم تبلغ كمالها ولم تتم الشعب كله وهي على أحسنها في الطبقات العليا من الامة . ألم تقرأ ما نقلناه في المنار ٤١ السابق عن السياسي الانكاييري من قوله (هذا الجلد والصبر لا يوجد عندنا الا في الضباط فانهم تربوا أحسن تربية وباقي الجيش من غوغاء الناس اذا مشى بضع ساعات يعييه الوجى والكلال ولا يصبر عن اللحم والخدر الا قليلا) . وهذا لا يكون الا بتعويد المرء نفسه على الجوع وترك الشهوات أحيانا لكيلا يتألم اذا أصابته مجاعة ويخور عزمه وهذا هو معنى الصوم واحدى فوائده المهمة . يقول التمدنون ان هذا النوع من ترويض الجسم وتأديب الشهوة لانكر فائدته ولكنه يمكن ان يحصل بغير الصوم المشروع في الاسلام ولا ريب ان هؤلاء الانكايير ومن على ساكنتهم في التربية لا يصومون هذا الصوم . وتقول في جوابهم اذا فرضنا ان هذا الغرض يحصل بالصوم وبطريق آخر من الرياضة فحسبنا في ترجيح الصوم ان فيه مرضاة الله تعالى والمثوبة الحسنة في الآخرة مع الفائدة في الدنيا على ان حكمة الخالق لا تقاس بحكمة المخلوقين . ووضع البشر لا يداني وضع أحكم الحاكمين

وها أنا ذا أسرد ما أستحضره من فوائد الصوم ليتبين للقارى انه لا يرغب

عنه الا من سفه نفسه وقد ذكرت فائدتين منها في طراوي الكلام وأعيدها مع اخواتها بلون آخر من البيان

(الفائدة الاولى) الصحة لانه رياضة تجفف الرطوبات البدنية وتغني المواد الرسوبية. فقد قال ابن سينا الحكيم الاسلامي ان هذه المواد تولد من الطعام وتكثر حتى تولد منها امراض يخفى سببها وقد اكتشف بعض علماء أوروبا هذه المواد من سنين قليلة (وقد كان سبقهم حكيمنا اليها بضممة قرون). يقول الآخذون بالظواهر اننا نعرف من أنفسنا الضعف والذبول بالصوم فكيف نسمي الضعف صحة ومن لوازم الصحة القوة ونجيبهم بان عاقبة هذا الضعف والذبول القوة والنمو ألم تراو كيف يمنع النبات الماء زمانا حتى يذبل ويذوى ثم يفاض عليه فيكون أسرع نموًا مما لو عوهد بالسقي دائما بل هو في هذه الحال معرض لليبس لانه يرد عليه من الغذاء اكثر مما تطلبه طبيعته ويندرج هذا تحت قاعدة (رد الفعل) المعروفة. الشجرة البرية كما قال الامام علي - اصاب عودا وابطأ خمودا. والاجسام الحية يشبه بعضها بعضا في الشؤون الحيوية. وقد ثبت في الطب ان السنين اذا أخذت قوما فان فعل الجذب والقحط يكون على أشده في المترفين المنعمين الذين اعتادت معدتهم ان لا تخلو من الماء كل الرطوبة الدسمة فيكثر فيهم الموانن ويسرع فيهم الفناء وتكون السلامة أغلب في أهل الشطف والقشف. فما أحوج هؤلاء المنعمين في النعيم الى رياضة الصوم لتقوية أبدانهم !!

(الفائدة الثانية) كسر سورة الشهوة وجزر مدها فان طغيان الشهوة يفضي بصاحبها الى الافراط في تناولها فينطفيء في نفسه نور العفة وهي احدى أركان الفضائل الاربع ومتى تقوض هذا الركن ينهدم معه ما بني عليه من

الفضائل كالحياء والدعة والصبر والسخاء والحرية الحققة والقناعة والدمائة
والانتظام والمسألمة والوقار والورع واختل مزاج النفس وتبمه اختلال مزاج
البدن لان الافراط في الشهوات منبع الامراض والادواء باجماع من الاطباء
ولهذا المعنى قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان (اذا دخل شهر
رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصدفت الشياطين) زاد
الترمذي وابن ماجه والحاكم (ونادى مناد ياباغي الخير هلم ويا باغي الشر
اقصر) فابواب الجنة الفضائل والطاعات وأثرها في الصوم أعم وأظهر وأبواب
النار الرذائل والمعاصي وانطاس أثرها في الصوم الحقيقي لا ينكره وبهذا يبطل
تأثير الارواح الشريرة التي تلبس النفوس فيقوى فيها الميل الى الشرور
المعبر عنه بتصفيد الشياطين . يقول المعترض اذا ضعفت الشهوة في وقت
الصوم فانها تثوب بعمده كما تثوب الفضاضة والقوة بعد الذبول والضعف
بمقضى قاعدة (رد الفعل) التي ذكرتها في بيان الفائدة الاولى فيكون الصوم
مضراً . ونقول في جوابه ان موت الشهوة أو دوام ضعفها مضر بالانسان
وانما شرع الصوم وغيره لمنفعته والمطلوب في الصيام تضمير النفس كما تضر
الحيل حتى يملك صاحبها عليها أمرها ويأمن جماحها الى ما يحرمه الشرع ويورث
صاحبه الهوان والضعمة من اتباع الشهوات وانما يكون هذا بامتناعه في أوقات
مخصوصة عن تناول الشهوات كلها حرامها وحلالها لتنطبع في النفس ملكة القدرة على
الترك وهذا هو التهذيب المفروض على كل مكآف في جميع الشرائع . جعلت العرب
مدة تضمير الفرس أربعين يوماً وجعل الشارع مدة تضمير الانسان نفسه
ثلاثين يوماً في كل سنة ويستحب الزيادة عليها لاسيما بالنسبة لمن يعرف من
نفسه الجموح وعدم السلاسة لحكم الشرع « لها بقية »